نظرة على دراسة الدين
فى الغرب
فى العصر الحديث

دكتور

محمود سلامه

نظرة على دراسة الدين
فى الغرب
فى العصر الحديث

دكتور

محمود سلامه




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

منهج القرآن في دراسة الدين

قد لا أجافي الحقيقة إذا قلت إن دراسة الدين أي دين سواء أكان سماوياً أو وضعياً، وسواء أكان الدارس مؤمناً به أو غير مؤمن به ينبغي أن تتبع وتنطلق من الدين محل الدراسة ذاته بمعنى عدم إخضاع الدين لأي منهج علمي من خارجه، بل ينبغي أن يكون المنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج الذي يقترحه ذلك الدين. وذلك أن الدين في ذاته من المفروض فيه أن يكون هو نفسه منهج حياة لأنه ينظم حياة الفرد والمجتمع على السواء في علاقة تناغمية إنسجامية مع الكون ومع خالق الإنسان والكون، وأحسب أنه في هذه النقطة يلتقي مع أي مذهب فلسفي بشرى ناتج عن جهد بشري. وإذا كان الأمر كذلك فإن الفيلسوف صاحب المذهب الفلسفي لابد أن يكن قد أختط لنفسه – سلفا – منهجاً يتبعه في دراساته وانتقاله من حقيقة إلى أخرى في تسلسل منطقي مقنع بحيث لايدلي برأي ميتا فيزيقي يتناقض مع رأي أخلاقي، أو بحيث لا يكون هناك تعارض بين نظرته إلى الإنسان، وبين نظرته

إلى موقف هذا الإنسان من الكون والحياة ومبدأ الكون والحياة.

إذا كان الأمر كذلك بالنسبة للفيلسوف - وهو لاشك إنسان ذو جهد محدود، ومن ثم يكون من المتوقع أن تشوب نظرته بعض القصور أو بعض الهنات وإلا لما كان إنسانا، فأجرى بالدين الذي يدين به الإنسان، ويحدد على أساسه مصيره الأبدي أن يكون منهجياً.

وهذا المنهج في تصوري ينبغي أن يكون مبنياً على ما يتفق مع ميل الإنسان الفطري إلى التناغم والانسجام والمنطقية، ساعياً إلى وضع كل الأسس التي تكفل لمعتنقيه كل وسائل الراحة والإطمئنان والثقة في المعبود حتى ولو كلفه ذلك حياته. لأن الدين في حقيقته يلف الشخصية الإنسانية برمتها، فلا يقتصر على التعامل مع الجانب المادي فيه ولايحصر نفسه في الجانب العقلي المجرد، ولا يحدد تأثيره في الوجدان والعاطفة، بل إنه يشمل ذلك كله ويزيد عليه أنه يضع معتقده على الطريق الصحيح حينما يتعامل مع حقائق الحياة الواقعية اليومية وعلى حقائقها

الخفيـة الماورائيـة، وعلـى أهدافهـا ونتائجهـا المرتجـاة إن عـاجلاً أو آجـلاً.

وأول ما نلاحظه مـن منهـج نقـدي يوجـه إلـى الديـن هو منهـج التوثيـق النصـي، وهـذا المنهـج تعلمـه بعـد ذلـك علمـاء التـاريخ والآثـار؛ والتوثيـق النصـي ذو فرعيـن أولهمـا: تتبـع الروايـة ونقد الـرواة إذا كـان منقـول شـفوياً، أمـا إذا كـان المنقـول خطـاً وكتابـة فـالمفروض فـي التوثيـق هنـا المقارنـة بيـن النسـخ الحديثة والقديمـة والأقـدم حتـى الوصـول إلـى أول نسـخة مكتوبـة. وثانيهمـا: النقـد الداخلـي، وربمـا كـان ذلـك أصعـب مـن الفـرع الأول، لأنـه يحتـاج إلـى إسـتبطان النـص والمقارنـة بيـن أجزائـه ومدلـولات هـذه الأجـزاء بحيـث لايضـرب النـص بعضـه بعضـا قـال تعـالى: " أفـلا يتدبـرون القـرآن ولـو كـان مـن عنـد غـير اللـه لوجـدوا فيـه اختلافـاً كثـيراً" [1] أمـا التوثيـق فـي الروايـة فـإن القـرآن الكريـم يقـول "يـا أيهـا الذيـن آمنـوا إن جـاءكم فاسـق بنبـأ فتبينـوا أن تصيبـوا

(١) النســاء: ٨٢.

قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين" [١] . ومن المناهج التي اختطها القرآن الكريم للوصول إلى الحق المنهج المقارن الذي يعتمد على الحس والوجدان والعقل المجرد في التحليل ورد الجزئيات إلى كلياتها، والاستفادة من الوقائع المادية والواقعية، واستثارة الشعور والوجدان قال تعالى طالباً من الإنسان الذي لايريد الإيمان به إلها واحداً أن يرقى بفكره إلى أعقد الأمور الحياتية وهي إيجاد الكون والإنسان: "ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب" [٢] ويستمر في المقارنة آخذا هذه المرة القضايا الاجتماعية موضوعاً للمقارنة يقول: "ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لايقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقاً حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون، وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شئ وهو كل على مولاه أينما يوجهه لايأت

---

(١) الحجرات : ٦

(٢) الحج : ٧٣

بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم" [1] .

وفي موضوع المناقشة مع الاخرين يضع المنهج الأمثل في هذا السياق فيشترط أن يكون الجدال بالحسنى بمعنى ترك المماراة، والقصد الهدف بغية الوصول إلى الحق بشرط أن يكون الطرف الآخر على استعداد لذلك، لأن كل مجهود يبذله الإنسان ينبغي أن يكون موظفاً لتحقيق هدف سام يعود عليه بالنفع وعلى المجتمع، بل على الإنسانية كلها بالخير، فيقول موجهاً الخطاب إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – "أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن"[2] وكما يركز على هذا المنهج بالذات ويؤكد عليه إذا كان الأمر خاصاً بأهل الكتاب يقول عز وجل: " فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما

(١) النحل : ٧٥، ٧٦

(٢) النحل : ١٢٥

عليك البلاغ والله بصير بالعباد" [١] . ومن تمام المنهج ألا يحاجج أحداً من المخالفين، ولايماري ولايجادل إلا بالتي هي أحسن فإن أصر الطرف الآخر على جداله ومغالطاته فلا تجاريه في ذلك، بل احتكم إلى الله وأشهده على المخالف، وخاصة هؤلاء الذين هم من أهل الكتاب وفي هذا السياق ضرب القرآن الكريم أروع الأمثلة في الدعوة إلى الدين الواحد من جهة، وفي السماح بالتعددية من جهة أخرى، والدعوة إلى الدين الواحد لاتعني التلفيقية بين الأديان، بل الدعوة إلى المبدأ الحق الذي يلتزم بالتوحيد الخالص. وذلك على عكس بعض الدعوات التي دعا بها البعض مؤخراً، لاسيما في شبه القارة الهندية حيث قد ظهر بعض الناس هناك يريدون التلفيق بين الإسلام والهندوسية مثل

(رام موهن راي Ram Mohon Ray (١٧٧٤م- ١٨٣٣م) الذي أطلق على حركته أسم (براهما ساماج) وقد أسسها عام ١٨٢٨م. [٢]

---

(١) آل عمران : ٢٠

(٢) أنظر

أما القرآن الكريم فإنه يقول: "الحق من ربك فلا تكن من الممترين، فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين" (١) ثم يضع المبدأ الراسخ للدعوة التوحيدية بين الأديان قائلاً "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئاً ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون" (٢) .

منهج علماء الإسلام في دراسة الدين:

لقد كان القرآن الكريم هو النبراس المنهجي أمام علماء الأديان المسلمين أو بالأحرى علماء مقارنة الأديان المسلمين. لم يخضعوا الدين لأي منهج من خارجه، مع أنهم كانوا قد أطلعوا على مناهج متنوعة وفدت عليهم من خارج البيئة الإسلامية، خاصة أن هؤلاء العلماء كانوا في

Farquhar, J.N.: Modern Religious Movement in India, New York, The Macmillan Company, Reprinced 1924, p. 29.

(١) آل عمران : ٦١

(٢) آل عمران : ٦٤

معظمهم، بل قل كلهم في الأصل متكلمين، وعلم الكلام زخر بالآراء والمذاهب والمناهج من مختلف الأنحاء فالمنهج العقلي، والمنهج النقلي، والمنهج الذي يزاوج بين المنهجين السابقين مع تغليب جانب العقل على جانب النقل أو تغليب جانب النقل على جانب النقل، كما وجد بجانب تلك المناهدج الكلامية منهج ذوقي نفسي إستبطاني وغير ذلك. لكن عند دراسة هؤلاء العلماء لموضوع الدين الإسلامي في مواجهة غيره من الأديان سواء أكانت كتابية أو غير كتابية، سبقوا عصرهم في منهجية البحث إذ فرقوا بين المنهج (Method) الذي هو الطريقة التطبيقية التي اتبعوها في بحث القضايا المعروضة، وبين أسس المنهج (Methodology) الذي هو عبارة عن الفلسفة الأساسية التي يتبعها الباحث التي على أساسها وإنطلاقاً منها يكون البحث معقولاً، كما تكون المعيار الذي بواسطته يشرح المعطيات، ويصل من خلاله إلى النتائج. [1]

---

(1) Daily, kenneth D.: Method of Social research, U.S.A., 1982, p. 32.

فقد كانت الفلسفة الأساسية لمنهجهم الوصول إلى نتيجة مؤداها صحة العقيدة والمبادئ التي جاء بها الإسلام بناء على الثقة المركوزة في عقولهم في النص النبوي، وكونه من عند الله، وكونه لم يتناوله أي تغيير وتحريف ومصداقا لقوله تعالى "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" هذا بالإضافة إلى إيمانهم بنسخ الرسالة المحمدية لجميع الديانات السابقة عليها ووجوب أن يكون هذا الإسلام الدين الخاتم رسالة عامة عالمية للناس كافة ومن ثم فإن أى إنسان موجود على ظهر الأرض ينبغي أن يؤمن بهذه الرسالة وإلا عد مخالفاً.

وهذه الحقائق الأساسية تنطلق من أسس موضوعية فهموها من القرآن الكريم، ومن السنة النبوية الشريفة. وفي نفس الوقت يؤمنون بأن التوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله على نبيين ورسولين مرسلان من الله عز وجل هما موسى وعيسى عليهما السلام، كما يؤمنون بأن الله قد بشر موسى عليه السلام بمجئ رسول آخر الزمان وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك بشر عيسى عليه السلام بذلك. كما يؤمنون بأنه قد حدثت تحريفات وتغييرات في النص التوراتي والنص الإنجيلي حتى لاتنطق بهذه الحقائق السابقة.

أما الطريقة التطبيقية لهذه الأسس المنهجية فقد تمثلت في ذكر الحقائق وعرض آراء الخصوم عرضاً أميناً ثم العودة إليها بالنقد والتفنيد، وذلك مما علمهم القرآن الكريم، فمثلاً عندما يعرض القرآن الكريم لتفنيد رأي النصارى في ألوهية عيسى عليه السلام يعرض هذا الرأي أولاً بأمانة ثم يقول "ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون"[١] وهكذا أقبل علماء الأديان في الإسلام يوردون النص التوراتي أو النص الإنجيلي كما ذكر في التوارة والإنجيل ثم يناقشونه طبقاً لما تفرض عليهم الأسس المنهجية الإسلامية التي سبق الإلماع إليها مستخرجين منها ما يؤيد وجهة نظرهم. [٢]

---

(١) آل عمران: ٧٩

(٢) أنظر: الطبري، علي بن زين: الدين والدولة في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، تحقيق عادل نومهيص، بيروت، دار الجبل، ١٩٧٨م.
وأنظر: أبو الحسن العامرى: الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق غراب، الرياض، ١٩٧٨م.

مناهج علماء الغرب في دراسة الدين:

لاشك أن المنهجية الغربية في مختلف العلوم قد قطعت شوطاً هائلاً منذ أن بدأ فرانسيس بيكون بأخذ بالمنهج التجريبي القائم على الملاحظة والتجربة ثم القانون. وقد أخذت مختلف العلوم منذ ذلك التاريخ يتسلل الواحد تلو الآخر من حضن الفلسفة الأم ويستقل بمنهجه الذي يتفق مع طبيعته، وطبيعة الموضوعات التي تنضوي تحته. وأصبح من الصعب تطبيق منهج في ميدان علم من العلوم على علم آخر مختلف عنه في الموضوع والنتائج إلى أن وصلنا إلى علم الدين فكانت المشكلة التي أعتاصت عليهم، هل يطبق عليه المنهج التاريخي المقارن، أو يطبق عليه المنهج السيكولوجي والمنهج الفنومنولوجي أو المنهج الأنثروبولوجي الاجتماعي، كل هذه المناهج قد تم تجريبها في دراسة الدين. ومع ذلك، ظل الحال في أضطراب فلم ينجح أي من هذه المناهج في الوصول إلى الرأي القاطع في أمر الدين حتى أنتهى البعض أخيراً إلى إعلان مايشبه الفشل أو اليأس في الوصول إلى منهجية متفق عليها بين الباحثين في هذا الميدان، مما دفعة إلى القول بأن هناك

مؤتمـرات عقـدت وكتبـاً تـم تأليفهـا، كـل ذلـك مـن أجـل الوصـول إلـى منهـج يمكـن أن يتفـق عليـه البـاحثون دون جـدوى. (١)

فما هـو السبب - ياترى - فـي هـذا الفشـل المشـوب بالإحباط فـي هـذا الميـدان؟ هنـاك إجتهـادات كثـيرة لتحديـد الأسباب وراء هـذا الفشـل فـي الوصـول إلـى المنهجيـة فـي دراسـة الديـن، غـير أن هـذه الاجتهـادات كلهـا تـدور حـول نفسـها ولاتريـد أن تعـترف بالحقيقـة الصارخـة التـي تقـف وراء افتقـاد المنهـج الأمثـل فـي مجـال الدراسـات الدينيـة، فهنـاك بعـض الآراء التـي تقيـس الديـن علـى الفلسـفة، وإذا كـانت الفلسـفة لـم يتحـدد موضوعهـا حتـى الآن، فـإن مـن الصعـب تحديد منهـج لهـا، وبنـاء علـى ذلـك فـالدين - مـن وجهـة نظـر هـؤلاء - لـم تكتمـل فلسـفة دراسـته حتـى الأن، ومعنـى ذلـك أن هنـاك أمـلاً فـي المسـتقبل الـذي ربمـا يسـفر عن الوصـول إلـى هـذا المنهـج(٢) ، وكـأن الديـن ذاتـه -فـي

---

(1) Whakling, Frank (ed.): contemporary Approaches to Study of Religion, Berlin, 1984, V.1, p. 34.

(2) Ibid, the same page.

نظر هذا الفريق - لم يتحدد موضوعه بعد، وبذلك يوحون بأن الدين هو نتيجة لجهد بشري مازال في طور الاكتمال مثله في ذلك مثل سائر العلوم التي تأتي كل يوم بجديد.

وهناك فريق آخر قد لا يختلف رأيه عن الرأي السابق، بل ربما يتطابق معه، وهذا الفريق يرى أن فلسفة العلم في تغير دائم، ومن ثم فإن الدين يتأثر بالنظريات العلمية المتغيرة دائماً.[1] ويرى آخرون أن شخصيات الباحثين وبيئاتهم ربما كانت السبب وراء الاختلاف حول المنهج، والأمر بهذا الشكل يخرج الموضوع من الدراسة الأكاديمية.[2]

وقد غاب عن هؤلاء وأولئك أنهم جميعاً بعيدون كل البعد عن تناول المشكلة في جانبها الحقيقي. فالمادة العلمية الأصلية التي تكون خير عون للباحث على اختيار المنهج الملائم لها لاتقبل المنهجية ولا حتى الدراسة. وليس ذلك راجعاً إلى الحقائق الدينية موضوع الدراسة والتي من

---

(1) Ibid, p. 369.

(2) Ibid, p. 22.

شأنها أن تحدد فلسفة المنهج فحسب، بل إنه يرجع إلى ماهو أهم وأعمق من ذلك بكثير، إنه سبب يضرب في أعماق التاريخ منذ أن أصبح الدين محرماً على البحث والتساؤل الجاد والتحليل العلمي الدقيق على غير رجال الدين، بل إن هؤلاء الرجال لم يحتكروا دراسة الدين لأنفسهم فقط، بل أحتكروا دراسة العلم أيضاً، حتى أصبحت المشكلات العلمية جزءاً من التعاليم الكنسية، والأغرب من ذلك أن اختلاط مفاهيم الدين في رأس هؤلاء السدنة بمفاهيم الفلسفة اليونانية، خاصة مذهب أرسطو في شتى فروع العلم حتى أصبح من العسير التفرقة بين الحقائق العلمية والحقائق الدينية كل ذلك جنى على الدين وعلى العلم في آن واحد. وأما أزمة كوبرنيكوس بغائبة عن الأذهان، بل إنه حدث في العصور الوسطى أن أكتشف أحد الطلاب بقعا جديدة في الشمس، فأعلن عن ذلك، فقيل له يومئذ، هل هذه البقع موجودة في كتب أرسطو؟ وإذا لم تكن في كتب أرسطو، فهناك احتمالان

هما: إما أن هذه البقع في عينيك أنت وإما أنه ليس هناك من يقع على الإطلاق. [1]

وربما كان هناك سبب أهم من وجهة نظرنا على الأقل - وهو إذا كنا نحاول البحث عن منهج لدراسة الدين، وخاصة إذا كان مصدر هذا الدين هو الوحي الإلهي، فإنه يكون من الأجدر أن نبحث عن هذا المنهج في داخل هذا الوحي السماوي نفسه، لأن من المفروض أن هذا الوحي السماوي موجه إلى البشر وهناك من البشر من يمكن أن يقبله بلا مناقشة، كما أن هناك من لايقبله إلا بعد بحث ودراسة في داخل هذه النصوص نفسها حتى يصل إلى القناعة التامة بجدارة الدين الذي تحمله هذه النصوص بالإقناع والتسلل بعد ذلك إلى الوجدان وكل حنايا الكياني الإنساني، ومن هنا فإن أي منهج يفرض على الدين من خارجه، محكوم عليه بالفشل، أو على الأقل يكون عرضة للنقد لما يتسم به من سمات الإنسان واضع

---

(1) Lighton: The field of Philosophy, N.Y., London, 1938, p. 195.

هذا المنهج، والإنسان في سعيه إلى الكمال بعتوره النجاح والفشل، والتوفيق والإخفاق.

ويضاف إلى ذلك أن الأديان السماوية الكبرى الثلاثة، وهي غالباً موضوع الدراسة ليست في متسوى واحد من حيث المادة والموضوع والإطار الزمني التاريخي. فكيف يمكن ومع هذا الإختلاف - أن تتم دراستها خاضعة لمنهج واحد يلم شعثها ويجمع شتاتهان إن وحدة المنهج تتطلب وحدة الموضوع، أو حتى وحدة الموضوع تفرض وحدة المنهج.

وليس معنى أن هذه الأديان الثلاثة ليست ذات مستوى واحد أنني هنا بصدد الانتصار للإسلام الذي هو ما أدين الله عليه، إن المغزى من ذلك من الوجهة العلمية البحثية المستقلة فقط. فالذاتية هنا تفسد البحث من أساسه.

فاليهود قد أحتكروا الله لأنفسهم، فليس هو إلها لغيرهم [١] ، والنصارى عمموا دعوة المسيح إلى كل

---

(١) سفر الخروج: الإصحاح الثاني، ١٨، والإصحاح التاسع: ١، ١٢.

البشر مع أنه رسول خاص ببني إسرائيل [1] والإسلام جعل الله إلها لكل العالمين [2] وجعل دعوته شاملة لكل البشر إلى يوم الدين بينما حكم على الديانتين السابقتين بانتهاء عهدهما، وأن على اتباعهما أن يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإلا عدوا غير ناجين يوم القيامة.

كما أن تصور أتباع هذه الديانات الثلاث للإله والكون والإنسان مختلفة تمام الاختلاف فاليهود وصفوا الله بصفاتهم، والنصارى جعلوا الله يحل في الناسوت، والمسلمون ينزهون الله عن ذلك كله، فليس كمثله شئ وهو السميع البصير، لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير.

وفي النهاية نجد أن كثيراً من علماء الغرب الذين تصدوا لبحث الدين ومشكلاته لايمنحون الدين موضوع بحثهم شيئاً من الاحترام، بل على العكس من ذلك ربما

(١) إنجيل متى: الإصحاح الثاني: ٢.

(٢) الفاتحة : ١، الأحزاب : ٤٠.

لاتكف ألسنتهم عن التعبيرات التي تحمل في مضامينها شيئاً غير قليل من السخرية وعدم التقديس، لأنه في الغالب يعتقدون أن الدين من صنع الإنسان [١] وها هو عالم الاجتماع العظيم يتحدث عن الدين بشئ من الاستخفاف الملفوق بالرفض يقول "يجب ألا نعترف إلا بسلطة العلم، فهي السلطة التي يمكن لأي باحث أن يقيم أي شئ بدونها، ومالم يثبته العلم لايمكن إثباته، ومنذ الآن لم يعد للدين دور. [٢]

علم الإجتماع ودراسة الدين:

يعتبر أوجست كونت (ت ١٨٥٧م) هو مؤسس الفلسفة الوضعية المنطقية، كما يعتبر أول مؤسس لعلم الاجتماع في أوروبا خلال القرن التاسع عشر. وكانت ولادته بعد قيام الثورة الفرنسية (١٧٨٩م) التي تعتبر نقطة فاصلة في تاريخ أوروبا كلها، وعلامة تحول بارزة، إذ

---

(1) Baurner Frankl Le Van (ed.): Main Currents of Western Thought, New Haven, 1978, pp. 391-3.

(2) Drkheim: Elementary forms of Religions Lif, English Trans., London, 1957.

كانت ختاماً لما سمي بعصر التنوير الذي اعتبر العقل هو المعتمد الأول والأخير في طريق الإنسانية بعد أن ظل هذا العقل قروناً مقيداً بسلطة الكنيسة، وبعد أن وقف الدين حجر عثرة أمام إبداعات هذا العقل وتطلعاته إلى آفاق واسعة، وها هو العقل قد أنتصر، واستطاع أن ينحي الدين من طريقه، بحيث أنزوى في داخل الكنيسة لايبرحها إلى حيث الحياة العامة علمية أو غير علمية، لكن هل استطاع العقل أن يقود المجتمع الفرنسي إلى النظام والاتساق؟[1]

في هذه الظروف نشأ أوجست كونت وتفتحت عيناه على الحياة، وقد وجد أن العقل رغم انتصاراته وقدرته على تحويل الحكام من كونهم ظل الله على الأرض إلى كونهم إنعكاساً لإرادة الشعوب، إلا أنه في المجال الفكري كان مايزال متعلقاً بالميتافيزيقا في معالجة المشكلات الاجتمايعة، ومن ثم كان لابد من تنحية العقل المتعلق

---

(١) فشر، هـ.أ.ل.: تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ترجمة أحمد نجيب هاشم و وديع الضبع، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٤، ص ١٤ ومابعدها.

بالميتافيزيقا، وذلك بإحلال المنهج الوضعي محل المنهج العقلي، ولذلك طرح (كونت) ثلاثة احتمالات لمحاولة إنجاز مايريد، هي:

١- التوفيق بين التفكير الوضعي والتفكير الميتافيزيقي.

٢- جعل المنهج الميتافيزيقي هو المنهج العام لجميع العلوم طبيعية كانت أو إنسانية.

٣- جعل المنهج الوضعي هو المنهج العام لجميع العلوم الطبيعية كانت أو إنسانية.

وبالطبع رفض (كونت) الاحتمالين الأولين، وتبنى الاحتمال الأخير إذ إن محاولة التوفيق جمع بين متناقضين، وتبنى المنهج الميتافيزيقي ردة إلى الوراء، وذلك بعد أن قطعت العلوم الطبيعية مرحلة واسعة من التطور والإبداع اعتماداً على المنهج التجريبي.

وقد بني (كونت) أفكاره هذه على نظريته في الأدوار الثلاثة المشهورة والتي تعتبر أن المنهج التاريخي الذي اعتمده قائما عليها، ومن ثم كان هذا المنهج هو

الوسيلة لدراسة الظواهر الاجتماعية، وبهذا يكون قد درس هذه الظواهر في ضوء التطور العام لتاريخ الإنسانية الفكري، ومع ذلك، فقد درس الظواهر الاجتماعية في تطورها وفي ثباتها. (١)

والخلاصة أن (كونت) انتهى إلى رفض الدين والميتافيزيقا على أنهما مرحلتان في تاريخ البشرية مضى عهدهما، ولم يقبل إلا مايسفر عنه الواقع التجريبي، الذي يلزم جميع العقول - في نظره - التسليم بنتائجه، ومن ثم يمكن القضاء على الفوضى العقلية في عصره.

وليس من المهم الآن هو البحث عن نقاط الضعف من الوجهة الفلسفية في موقف (كونت) أو المدرسة الوضعية المنطقية بوجه عام وقد تكفل بهذا النقد باحثون أوربيون لهم وزنهم. (٢)

---

(١) الخشاب، مصطفى : علم الاجتماع ومدارسهن القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٢٨ - ٢٣٩.

(2) انظر Cornforth: Difence Philosophy Against. Pragmatism and Positivism, pp. 9-15.

وجاء (دور كايم) لكي يواصل مابدأه (كونت) فيركز على دراسة الظاهرة الاجتماعية وهي ليست من صنع فرد أو عدة أفراد، بل هي من صنع المجتمع كله. [1]

المهم أنه يقسم الظاهرة الاجتماعية إلى أنواع ويجعل لكل نوع علما خاصا بدراسته وهي :

(١) علم المورفلوجيا الاجتماعية الذي يختص بدراسة جغرافية المكان وعلاقة ذلك بالتنظيم الاجتماعين ودراسة السكان من حيث التخلخل والتوزيع على المساحة (ديموجرافيا)

(٢) علم الوظائف الاجتماعية، ويشمل: الاجتماع الديني، والاجتماع الأخلاقي، الاجتماع القضائي، والاجتماع الاقتصادي، والاجتماع اللغوي والاجتماع الجمالي.

(٣) علم الاجتماع العام، وهو العلم الذي تتجمع فيه النتائج الجزئية للعلوم السابقة، حيث يقوم بتركيبها وبذلك تصبح قوانين عامة. [2]

---

(١) الخشاب، مصطفى: المرجع السابق، ص ٢٥٧ – ٣٠٥.

وبهذا الشرح يتبين أن (دوركايم) قد اعتبر الدين في عمومه ظاهرة اجتماعية من صنع المجتمع سواء أكان دينا سماوياً أو وضعياً، ويترتب على ذلك أن نظرته إلى الرسل والأنبياء تتبلور فى أنه لم يكونوا مبلغين عن الذات العليه التي هي الله، وإنما دفعتهم الظروف الاجتماعية إلى اختراع الأديان التي جاءوا بها، وأن هذا الاختراع إنما هو وليد العقل الجمعي، ومن ثم فهؤلاء الرسل إنما يتحدثون باسم الجماعة لا أنهم جاءوا لإصلاحها.

والحق أن الأديان السماوية ليست ظواهر اجتماعية على الإطلاق وربما ينطبق ذلك على الأديان البدائية، أما الأديان السماوية، فلا يمكن أن تكون من صنع فرد من أفراد البشر، أو جماعة من الجماعات، وبناء على ذلك لايمكن أن تكون مجرد ظواهر اجتماعية.

أما التدين، فهو الذي يمكن أن يعتبر من الظواهر الاجتماعية المؤثرة في غيرها من الظواهر الاجتماعية والمتأثرة بها، فهناك فرق بين الدين والتدين، فالدين

---

(٢) المرجع السابق، ص ٣١١.

السماوي من صنع الله عز وجل أوحى به إلى البشر بهدف إصلاحهم، أما التدين فإنه نتيجة لعوامل كثيرة من بينها الأسرة والبيئة والناحية النفسية.

ويقرر (دوركايم) أن المفكرين يختلفون فيما بينهم حول نشأة الديانات إلى فريقين: فبعضهم يذهب إلى أن الديانة الطبيعية هي التي ظهرت في الجنس البشري سابقة على الديانات الروحية، ويرى البعض - على العكس من ذلك - أن الديانات الروحية هي الأسبق.

ويأخذ (دور كايم) بالرأي الأول، فيرى أن عبادة التوتم هي الأسبق، والتوتم عبارة عن أصل حيواني أو نباتي تعتقد العشيرة التوتمية أنها منحدرة منه، وكانت العشائر تنزل تواتمها ومايتصل بها منزلة التقديس وتتجه إليها بالعبادة، وتعتبرها رمزاً لها، وعلما على جميع أفرادها، وهي دعامة حياتها، وأساس وجودها الاجتماعي، أي أن التوتم هو المجتمع وهو معبوده، ومصدر القوى الحيوية المحركة له، وفي ضوءهذه الاعتبارات ينتهي (دوركايم) إلى تقرير حقيقة دينية مؤداها أن المجتمع قد عبد نفسه في أول مظهر من مظاهر التدين.

أما التوحيد، فلم يظهر إلا بعد مجيئ الإمبراطوريات الكبرى، ومن ثم فهو متأخر عن عبادة التوتم أو المجتمع على نحو ما يذهب إليه (دوركايم)، والتوحيد ليس إلا متفرعاً عن العبادة التوتمية ونتيجة لها.

أما في الميدان الأخلاقي، فإن (دوركايم) ينتقد كل المذاهب الفلسفية السابقة عليه، فهي - في رأيه - تبني كلامها في المشكلة الأخلاقية على أساس من التفكير المجرد البعيد عن الواقع، فهي إذن مجرد أفكار خيالية لاتمس الواقع الأخلاقي، ولذلك فشلت جميع هذه المذاهب في علاج المشكلة الأخلاقية، لأن قصاري جهد أصحاب هذه المذاهب مستهلك في مناقشة الأفكار، مع أن الأخلاق شئ آخر غير الأفكار، أما إذا أردنا علاج المشكلة الأخلاقية، فإن علينا أن نتعامل معها على أساس أنها ظاهرة اجتماعية لها أسبابها. [١]

---

(١) دوركايم: قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠، ص ٨٣ ومابعدها.

الأنثروبولوجيين ودراسة الدين:

يعتمد أصحاب المذهب الأنثروبولوجي في أساس اتجاههم على نظرية (داروين)، ولذلك لم نسمع عنهم قبل ظهور هذه النظرية فهم نتاج القرن التاسع عشر الميلادي في الغرب.

وينظر هؤلاء إلى الإنسان على أنه حيوان، غاية ما هناك أنه يتميز عن سائر أنواع الحيوان بأنه ذو فكر وثقافة، وهم بذلك يرتبطون بالاتجاه الأرسطي القديم في التصنيف الطبيعي للمخلوقات.

ويتناول أصحاب هذا المذهب موضوع دراستهم في ناحيتين: الجسم البشري، وهم يعتبرونه جسما طبيعياً لافرق بينه وبين الأجسام الأخرى للحيوان إلا في الدرجة فقط، ومن ثم فإن دراستهم له تقوم على أساس المقارنات بين الإنسان المتخلف وبين القرد من جهة، وبين الإنسان المتخلف والإنسان المتحضر من جهة أخرى وذلك بهدف

الوصول إلى مابين الطرفين موضوع المقارنة من أوجه الشبه وأوجه الاختلاف. (١)

أما الناحية الثانية من الدراسة فإنها تركز على الثقافة البشرية وتنظر إلى الإنسان على أنه حيوان مختلف عن الحيوانات الأخرى لأنه يتميز عنها بأنه ذو ثقافة وتاريخ، ويدخل في الإطار الثقافي الذي هو نتيجة لهذا الإنسان الحيوان الاجتماعي، الأعراف والتقاليد والعادات الاجتماعية المتوارثة. (٢)

والحق أن هذه النظرية، على هذا النحو، تضرب الدين في مقتل، بل تضرب جميع النصوص المقدسة إسلامية كانت أو مسيحية أو يهودية، فهذه الأديان، ولاسيما خاتمها وهو الإسلام يعلي من كرامة الإنسان، فالله عز وجل كرمه وفضله على كثير من مخلوقاته "ولقد

---

(1) Cayne, Bernard S. (ed.): Lexicon Universal Encyclopedia, art, Anthropology, New York, 1983, p. 53.

(2) Enternational Encyclopedia of the Social Science, Art, Anthropology, p. 313.

كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا" [١] ، كما أن الله تبارك وتعالى اختاره من بين مخلوقاته ليكون خليفته [٢] في إعمار الأرض اعتماداً على المنهج الإلهي الذي أوحى به إلى أول البشر، ومن بعده الرسل الذين توالوا، وكان آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم.

والحق أن هؤلاء الأنثروبولوجيين) كانوا مندفعين إلى دراسة الدين بمنهجهم هذا، وهم في نفس الوقت يضمرون العداوة للدين. لقد كفروا بما يقول به رجال الكنيسة من جهة، وآمنوا بنظرية (داروين) من جهة أخرى، ومن ثم لاعجب أن يصبحوا ماديين ولا أدريين.[٣]

وهذا موقف طبيعي بالنسبة لهذا النوع من العلماء، فالقول بالتطور وانتقال الإنسان بيولوجيا وذهنياً من مرحلة

---

(١) الإسراء : ٧٠

(٢) البقرة : ٣٠

(3) Parrinder, Geoffrey: comparative Religion, London, 1962, p.17.

أدنى إلى مرحلة أرقى ليس لها من نتيجة حتمية سوى هذا الموقف.

لذلك، لم يختلف منهج هؤلاء في دراسة الدين عن منهج علماء الاجتماع الذي سبق الحديث عنه، إنهم يقولون إن منهجهم هو المنهج المقارن. لكن أية مقارنة، إنهم قارنوا بين الأديان التي أعتنقتها القبائل البدائية، معتبرين أن هذه الأديان هي أصل نشأة الدين. فوقعوا في الخطأ الذي وقع فيه علماء الاجتماع الذين اعتبروا عبادة التوتم سابقة على عبادة التوحيد، فلم يسلموا هم أيضا من نظرية (كونت) عن المراحل الثلاث، لقد كانت عقيدة التوحيد مرحلة من مراحل تطور الحيوان البشري الذي دفعه الميل إلى بناء الامبراطوريات الكبرى إلى توحيد الإله لكي يظل الامبراطور الواحد هو ظل ذلك الإله الواحد، فلابد، إذن أن تكون النتيجة ايضاً متشابهة مع هذه الأسس والشئ المثير للدهشة أن بعض أصحاب هذه النظريات هم في الأصل رجال دين تمردوا على الدين وآمنوا بالأنثرويولوجي. فصاحب النظرية الأخيرة التي سبق الحديث عنها بأنها المعارضة لما قبل الحيوانية التطورية

هـو القسـيس كودرنيجتـون Anti Evolutionarg Pr-anioialist Codrington الـذي قـال بوجـود مـا يسـمى (المانـا) وهـي العلـة وراء أي حـادث قبـل إنتشـار الـروح فـي أشـياء الطبيعـة.[1]

علماء النفس ودراسة الدين :

كـان المنهـج الميتـافيزيقي لدراسـة النفـس الإنسـانية هـو المسيطر علـى جميـع الدوائـر العلميـة الفلسـفية منـذ أن أعلـن سـقراط قولـه (أعـرف نفسـك) وظلـت الدراسـات النفسـية فـي إزديـاد وتطـور مسـتمر عنـد اليونـان مـن خـلال أفلاطـون وأرسـطو والرواقيـة والأبيقوريـة ثـم الأفلاطونيـة الحديثـة التـي وصلـت الدراسـات النفسـية فيهـا إلـى درجـة رفيعـة نتيجـة إفادتـه مـن الأفكـار والفلسـفات الشـرقية المصريـة والهنديـة والفارسـية، وقـد انتقـل هـذا الـتراث إلـى العـالم الإسـلامي بواسـطة المـترجمين، وتناولتـه أقـلام فلاسـفة الإسـلام محـاولين التوفيـق بينـه وبيـن ماجـاء عـن النفس أو الـروح فـي

---

(1) James, E.O.: Comparative Religion, London, 1961, p.17.

النصوص الدينية الإسلامية، وكانت لهم إضافات غير قليلة في هذا الميدان لاسيما عند الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد، كما حظيت الدراسات النفسية من الوجهة النظرية والتطبيقية العملية عند متصوفه الإسلام بخط أوفى وأوفر.

وكان أهم ما وصل إليه فلاسفة الإسلام ومفكروه استلهاماً للفكر اليوناني هو أن النفس هي الإنسان على الحقيقة، وأن البدن ليس سوى ثوب يخلع وأما النفس فهي العارفة، وهي المحاسبة، وهي أساس الخير والشر في عمل الإنسان.

وقد تأثر فلاسفة الغرب في العصور الوسطى بآراء المسلمين في هذا المضار كما هو الحال عند أنسليم وتوماس الأكويني وغيرهما، لكن ما إن تم اكتشاف المنهج العلمي التجريبي - على نحو ماسبق - وبدأت العلوم تتصرم من الفلسفة الأم ذات المنهج التجريدي القديم حتى بدأ علماء الغرب يفكرون في أن يتجهوا بعلم النفس اتجاهاً تجريبياً هو الآخر، وأحسب أن علم النفس هذا كان أحدث

العلوم التي ثارت على المنهج القديم. ومن ثم تحول علم النفس من الميتافيزيقا إلى الملاحظة والتجربة.

ومعنى ذلك أن علماء النفس بدلاً من دراسة النفس كأمر غيبي مستقل عن البدن، ووسيلة من وسائل الإدراك، والاتصال بالعالم الحسي والعالم الأعلى الغيبي، بدلاً من ذلك كله بدأوا يلاحظون التصرفات الظاهرية للإنسان عبر تاريخه الفردي أو عبر تاريخه الجماعي، أو علاقته ببيئته وأسرته ومجتمعه، ويحددون على أثر ذلك حالته النفسية السوية أو المرضية، وأصبح لكل تصرف إنساني مدلول عندهم يقيسونه عليه، ومن هنا كانت كل أعماله وتصرفاته وآرائه وافكاره وعواطفه وأحاسيسه لها مبرراتها أو لها أسبابها المحددة، ودوافعها المعروفة.

وكان المتوقع أن يتفق علماء النفس – وهذا حالهم – على منهج واحد في دراسة الدين كعقيدة وسلوك، وطقوس وشعائر وعلاقات غير أن الأمر كان على خلاف المتوقع، فأصبحت المناهج السيكلوجية في دراسة الدين بعدد علماء النفس، فظهرت مناهج متعددة، كل منها له مميزاته ومحاسنه، كما أن له عيوبه ومساوئه ونواحي

قصوره، ولا أحسبني أجاوز الحقيقة إذا ماقلت أن كل منهج يفرض على دراسة الدين من خارج الإطار الديني نفسه، أي يكون نتيجة لاجتهادات بشرية لابد في النهاية أن تشوبه بعض الأخطاء، إن لم يكن كثير من الأخطاء، إذ إن الدين في جوهره منهج إلهي من المفروض أن يسير عليه الإنسان في حياته ومجتمعه، فكيف يكون المنهج ذاته خلوا من المنهج، ولعلى قد أشرت إلى هذه الحقيقة ذاتها في بداية هذه الدراسة.

وإذ كنا قد ذكرنا أن علم النفس الحديث أصبح يركز على دراسة السلوك الوقعي بدلاً من اللجوء إلى دراسة العقل كأداة نفسية غيبية لاتخضع للعلم. [1] فإنه من المتوقع أن ينصرف علماء النفس عن دراسة جوهر الدين من حيث العقيدة والشعائر والمعاملات كما هي في نصوصها الدينية إلى دراسة ظاهرة التدين، ومن ثم كانت دراسة هؤلاء العلماء منصبة على السلوك الديني عند

---

(1) Kamble, Gerogry A.: Principles of Psychology, New York, 1984, p.3.

الإنسان المتدين أيا كان دينه نصرانياً كان أو يهودياً أو هندوسياً أو وثنياً بدائياً كان هذا الدين أو سماوياً.

على أن علم النفس، وهو في طور إستقلاله علماً تجريبياً، كان مجالاً لاستخدام المناهج الأخرى لبعض نظرياته التي كانت تكتشف تباعاً، ومن هنا استخدمه الأنثروبولوجيون والفلولوجيون في محاولة تفسيرهم لنشأة الدين، فمثلاً كانت هناك نظرية تفسر نشأة الدين قال بها Max Muller وأطلق عليها أسم (أسطورة الطبيعة Nature Myth. ، فالدين طبقاً لهذه النظرية نشأ من التجاوب الحسي للإنسان مع الظواهر الطبيعية، كما كانت هناك بعض النظريات الأنثروبولوجية، بل لعلها أحدثها عند علماء هذا الفرع من الدراسة، تقرر هذه النظرية أن الدين نشأ من الشعور بالخوف والرهبة والإحباط والضغط وغير ذلك من النظريات المتعددة كلها استخدمت نتائج الدراسات النفسية التي توصل إليها العلماء في الميدان السيكولوجي، ومن هنا نتبين أنه لم يكن هناك فاصل بين

الأنثروبولوجيا وبين النظريات النفسية في مجال الدراسات الدينية. [١]

والملاحظ هنا - سواء عند أصحاب النظريات الأنثروبولوجيا المشربه بعلم النفس، أو عند علماء النفس الخلص - أن الدراسة تنصب على الظواهر الدينية على اعتبار أن الدين مصدره الإنسان، لا أنه صادر عن قوة عليا فائقة بالنسبة للدين السماوي، أو عن إنحراف عن المصدر الأسمى بالنسبة للدين البدائي أو الوضعي، وماذاك إلا لأن هؤلاء العلماء أنفسهم ليسوا على وفاق مع الدين، ومن ثم فإن نقطة الإنطلاق في دراساتهم غير صحيحة، إن علماء الفيزياء أو الكيمياء أو وظائف الأعضاء أو غيرها من العلوم التي ضربت بسهم وافر في مجال التقدم البحثي، لم يكونوا غير عاشقين لمجالات تخصصهم، ولذلك لأنهم يبدأون تجاربهم مجردين من الحب او الكره لموضوع بحثهم، أما هؤلاء، فإنه يخيل

(1) Shasrpe, Eric J.: Comparative Reliligion A. History, New York, 1975, p. 99.

إلينا، أنهم قد شكلوا آراءهم قبل إجراء بحوثهم، ومن هنا ظهرت العيوب في نتائجهم.

فالأديان السماوية - بلاشك - مصدرها فوقي أي من خارج الإنسان والطبيعة، ولو أنهم كانوا جادين في بحوثهم هذه لتتبعوا تاريخ نشأة أي دين سماوي بدقة وأدركوا من خلال هذه الدراسة أن هذا الدين أو ذاك من الأديان السماوية لايمكن أن يكون مصدرها الإنسان! فمن الذي يخترع ديناً ثم يقدم نفسه فداء له! وقد كان هذا دأب أتباع هذه الأديان السماوية في بدايتها. ما الذي دفع بسحرة فرعون وهم في مناصبهم الرفيعة عنده إلى أن يفضلوا الموت والصلب في جذوع النخل على أن يعودوا إلى عبادة الفرعون بعد أن تبين لهم أن موسى عليه السلام ليس ساحراً وأن ماقام به يجب أن يكون مصدره قوة فائقة للطبيعة والإنسان. [1]

---

(١) أنظر هذه الآيات في هذه السور: الأعراف: ١١١-١٢٦، يونس: ٧٦ - ٨١، طه: ٧٣ : ٧٥.
وانظر التوراه، سفر الخروج، الإصحاح السابع: ٨ - ١٢.

أمـــا الأديـــان البدائيـــة أو الوثنيـــة، فـــإن ســـببها هـــو إنحـراف أتباعهـا عـن الوحـي الإلهـــي بســـبب الغفلــة أو بســـبب تقليـداً للآبـاء قـال تعـــالى : "وإذ أخـذ ربـك مـن بنـي آدم مـن ظهورهـم ذريتهـم وأشـهدهم علـــى أنفســـهم الســـت بربكـم قـــالوا بلـى شـهدنا أن تقولـوا يـوم القيامـة إنـا كنـا عـن هـذا غـافلين، أو تقولـوا إنمـا أشـــرك آباؤنـا مـن قبـل وكنـا ذريـة مـن بعدهـم أفتهلكنـا بمـا فعـل المبطلـون"[1]

علـى أيـة حـال فـإن الدراسـات الدينيـة السـيكولوجية قـد بدأت بصـورة جديـة بـدءاً مـن الربـع الأخير مـن القـرن التاسـع عشـر، واسـتمرت فـي القـرن العشـرين، وقــد مـرت بمرحلتيـن الأولـى مـاقبل فرويـد والثانيـة تبـدأ بفرويـد وتسـتمر بعـده.

وكـان مـن أبـرز الدارسـين السـيكولوجيين فـي المرحلـة الأولـــى هـــو وليـــم جيمـــس William James (١٨٤٢ - ١٩١٠)، وكـانت نقطـة إنطلاقـــه فـــي دراســـته للديـــن هـــى الدراســـة النفســـية التجريبيـــة والفلســـفة البروجماتيـــة. ومـــن أشـهر كتبـه فـي هـذا الميدان (تنوعـات التجربـة الدينيـة) The

---

(١) الأعـــراف : ١٧٢، ١٧٣.

varieties of Religious Experience ، وقـد درس فيـه ظـاهرة الديـن مـن الوجهـة الفلسـفية البراجماتيـة أكـثر مـن الوجهـة النفسية [١] وقد ركـز جيمـس فـي دراسـته علـى الواقـع النفسـي التجريبـي بحيـث رفـض كـل مـاهو مصـدر فـائق للطبيعـة، وذهـب إلـى أنـه من خـلال دراسـة الحـالات النفسـية للأفـراد التـابعين لأي ديـن يمكـن الحكم علـى فسـاد هـذا الديـن أو صحتـه[٢] وهـذا يعنـي أنـه يحكم علـى النصرانيـة بـالبطلان لأن المسـيح عليـه السـلام يقـول: مـن ضربـك علـى خـدك الأيمـن فـأدر لـه الخـد الأيسـر أمـا المسـيحيون اليـوم فـي الغـرب فـإنهم يجتـاحون شـعوب العـالم الضعيفـة بـالتدمير والخـراب والقتـل والتشـريد، وبذلـك يكـون منطقيـاً مـع نفسـه، غيـر أنـه قـد لايقـول بذلـك لهـذا السـبب، لأنـه ينطلـق مـن مبـدأ آخـر خـارج الديـن وهـو الفلسـفة البرجماتيـة، ومـن ثـم فمـا دام قتـل الآخريـن ونهـب ثرواتهـم يحقـق نفعـاً للمعتديـن فـلا بـأس، ومـن هنـا تكـون تصرفـات أتبـاع المسـيح مـن الغربييـن صحيحـة فـإذن الديـن المسـيحي صحيـح طبقـاً لمبـدأ جيمـس.

---

(1) Sharpe, Eric J.: Op.cit., p. 109.

(2) Ibid: (The Same page).

أرأيت كيف يكون فساد نقطة الإنطلاق في المنهج مؤدياً إلى فساد في النتيجة!! أو إن شئت قلت إن استخدام منهج غير نابع من الموضوع ذاته بحيث لا يتلاءم معه إنما هو سلوك خاطئ في البحث العلمي.

ثم إذا كان (جيمس) يرفض من البداية أن يكون مصدر الدين علوياً، فإلى من يدين الإنسان؟ إلى نفسه أو إلى الطبيعة؟ أو إلى علماء النفس؟ إن نظرة فاحصة إلى الموضوع تبين مدى الفشل الذريع في هذا الاتجاه إن قمة التدين أن تؤمن بقوة غيبية أكبر من كل ماهو موجود وأقوى وأعظم، ومن ثم يمكن الاعتماد عليها، والركون إليها، ومن هنا يشعر الإنسان بقيمته فلا يستذل ولايضعف أمام أي مخلوق مهما كان جبروته وإن كان رأينا هنا لايعجب فرويد كما سيرد بعد ذلك، يقول الله عز وجل "ألم، ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون" (١) .

---

(١) البقرة : ١ - ٣.

على أية حال ليس المجال هنا هو الإمعان في تفاصيل فساد المنحى الذي نحاه وليم جيمس، ويكفي الإشارة إلى أن آراءه هذه قد تم تفنيدها بواسطة الباحثين الغربيين أنفسهم. (١)

وإذا انتقلنا إلى المرحلة الثانية من تطبيق المناهج السيكولوجية على دراسة الدين، فإننا نجدها تبدأ بعالم النفس سيجموند فرويد Sigmund Freud الذي صرف النظر عن دراسة الشعور أو الوعي إلى دراسة اللاشعور وطبق دراسته هذه على المجال الديني. واللاشعور عند فرويد هو أن كل إنسان في داخله منطقة أعمق من الشعور، لايمكن لصاحبها معرفتها، وهي السبب التي تدفعنا إلى التفكير والعمل والتصرفات العاطفية في حياتنا اليومية.(٢) ومن خلال دراساته وعلاج مرضاه أبتكر نظرية عن نشأة الدين بالنسبة للحياة الفردية فالطفل مثلاً تربطه بأبيه مصلحة الحماية والرعاية، فإذا كبر واستقل

---

(1) Ibid; p. 111.

(2) Frosh, Stephen: The Politics of Psychoanalysis, Hong Kong, 1987, p.2.

عن هذا الأب أخذ يبحث عن مصدر آخر لهذه الحماية فيلتمسها في أب الكل وهو رب العالمين. هذا بالإضافة إلى أن عقدة أديب عند الأطفال الذين ينشأون والأبن يعشق أمه ولكن أباه هو الذي يستمتع بها وهكذا يكن العداوة لأبيه، غير أنه لايستطيع الإفصاح عنها فتسقط هذه العداوة مكبوتة في اللاشعور، فإذا كبر أخذ يبحث عن متنفس لهذا الكبت في البحث عن إله أكبر يكون مجالاً للصراع بينه وبينه. وهنا يجد فرويد نفسه في حيرة، إذ إن نظريته مازالت قاصرة عن تفسير نشأة الدين، وكل مافعله أنه برر ميل الفرد إلى التدين، ولذلك فإنه أخذ يستعير النتائج التي أسفرت عنها جهود الأنثروبولوجيين [1] فهناك أسطورة يرددها هؤلاء الأنثروبولوجيون مفادها أن الدين قد نشأ لدى الشعوب البدائية في الأصل بسبب أنه قد حدث أن أبناء الأسرة قد حقدوا على والدهم بسبب إستئثاره بالنساء الجميلات دونهم، فقتلوا الأب ووزعوا على أنفسهم أولئك النساء، وبعد ذلك شعر الأبناء بفداحة جرمهم فأخذوا

---

(1) Encychlopedia of Religion, Art. Study of Religion, p. 78.

يكفرون عن هذه الجريمة بعبادة أبيهم وعبادة كل ماكان له صلة به. (١)

والحق أنه لايمكن التعليق على هذه النظرية أكثر من أن صاحبها كان مريضاً من الوجهة النفسية وحسب أن كل الناس مرضى مثله فأراد أن يعمم مايعانيه على جميع الناس، إذ هو على الأقل يربط أساس التدين عند البشر بأسطورة وردت عن الأدب اليوناني، وللأسف الشديد فإنه من الطبيعى أن أي طفل سوي أو شاب يغار على أمه، من أي رجل غير والده، كما يغار على والده من أية أمرأة غير أمه أما أن يعشق الطفل البالغ من العمر أربع سنوات أمه ويميل إليها ميلاً جنيساً، على حين لما ينبت الجنس في كيانه بعد، فإن ذلك شئ لايصدقه حتى المجانين. اللهم إلى أنه يمكن القول إن كفر مثل هذا العالم بالدين قد تحول إلى علم له قواعده التي لاتوجد إلا لدى المرضى من المضطربين عصبياً.

---

(1) Allen, Douglas: Strcture and Creativity in Religion, Britain, 1973, p.40.

أما يونج فإنه وسع اللاشعور من كونه فردياً، حتى أصبح جماعياً فالشخصية عنده محكومة بثلاثة محاور الأول الوعي أو الشعور بالذات أو (الأنا) الثاني: اللاشعور الفردي الثالث: اللاشعور الجماعي، الذي يحوي في داخله تجارب الأجداد المتوارثة من أعماق التاريخ والمحور الرئيسي الذي يعمل عمله في الشخصية هو المحور الأخير. (١)

وينظر يونج إلى الدين على أنه مجرد أسطورة، وهو عبارة عن حالة نفسية، فهو مجرد أهتمام خاص لأمور لها أهميتها، وذات تأثير، وقد تكون هذه الأمور سلطة أو أرواح أو شياطين أو آلهة أو أفكار أما وظيفة اللاشعور الفردي فإنه ينقل ماهو كامن في اللاشعور الجماعي إلى الوعي أو الشعور، ومن هنا فإن المجتمع لابد أن يعتقد في شئ ما، وهذا الاعتقاد يشمل البشرية كلها، ولذلك يذهب البعض إلى أن الدين فطرة مغروسة

(1) Corcini, Raymond (ed.): Ency. of Psychology, New York, 1984, Vol.2, p. 263.

في أعماق البشرية، ويأتي الشعور الفردي ليحول هذا الدين المنضوي في اللاشعور الجماعي، إلى صورة معينة من صور الدين سواء أكان الاعتقاد وثنياً أو سماوياً أو ما إلى ذلك من أشكال الدين المختلفة. (١)

ومن أهم الآثار التي ترتبت على نظرية يونج هذه هو أنه مهد لظهور منهج متفرع عن المنهج النفسي وهو المنهج الفنومنولوجيا، فقد حاول أتباع هذا المنهج دراسة الدين من الوجهة العاطفية بطريقة موضوعية خاصة أنه قد قال بضرورة طرح أية أفكار مسبقة عند تحليل وشرح اللاشعور. (٢)

وما ذهب إليه يونج هنا يبرر صحة الديانات الوثنية، وهو بذلك يكاد يشبه ابن عربي في المحيط الإسلامي الذي يذهب إلى أن عبادة الوثن أو غيرها إنما هي عبادة الله الواحد، وإن كان منطلق يونج يختلف عن

(1) Fordhan, Frieda: An Introduction to Jung's psychology, Britain London, 1979, p. 71.

(2) Jung, C.G.: Psychology and Alchemy, London, 1981, Vol.12,p.73

منطلق ابن عربي فالأول يرى أن بذرة الدين موجودة في أعماق البشر كلهم، غاية ماهناك أنها تتخذ صوراً وأشكالاً متنوعة على حسب جودة نقل اللاشعور الجماعي إلى الوعي أو عدم جودة هذا النقل. أما ابن عربي، فيرى أن كل شئ في الكون إنما هو أحد مظاهر التجليات الإلهية، فالحجر الذي يعبده المشرك هو بمثابة الله لأنه تجلى في الحجر، وهكذا.

الظاهرايتون ودراسة الدين :

تنصب دراسة أصحاب هذا المنهج على المسيحية من وجهة نظر بروتستنتية متحررة وهى التي تنظر إلى أن جوهر الدين ليس هو الكتاب المقدس أوالله أو أي كائن غيبي، بل الجوهر عندهم هو المقدس أو التقوى أو الصلاة. وهم لا يبحثون عن الأسس التي تقف وراء هذه المظاهر، إذ التقوى أو الصلاة مجرد مظاهر للدين وليس الدين في حقيقته، لأن الحقيقة إنما تتركز في العقيدة. ومن ثم يكون هؤلاء الفنومنولوجيون قد تركوا اللب وركزوا على القشرة أو اعتبر القشر هو اللب، أما اللب فليس له

وجود وذلك أن نقطة البداية عند أصحاب الفكر البرتستنتي المتحرر هي أن الدين من نتاج العقل البشري، وليس مصدره قوة عليا.

وهو يجمعون بين النقيضين في دراسة الدين أي بين الذاتية والموضوعية ومن ثم كان هذا المنهج على جميع المناهج السابقة عليه – التي سبق الحديث عنها – فهو أحدث هذه المناهج وناقدها والداعي إلى بطلانها. (١)

الخلاصة:

مما سبق يتبين أن الدراسة الحقيقية لموضوع الدين ينبغي ألا تجرى وراء التيارات الفلسفية أو الفكرية المختلفة، وإنما ينبغي أن تفرق أولاً بين الدين الصحيح والدين الباطل، بناء على مقاييس علمية محايدة، وبعد ذلك تعكف على محاولة فهم هذا الدين الصحيح في ضوء المعطيات التي يقدمها الدين نفسه، ثم تلتفت بعد ذلك إلى سائر الأديان التي ثبت بطلانها بواسطة الدراسة المحايدة

---

(1) Allen, Douglas: Op.cit., p. 57.

أيضاً، لبيان علة نشأتها، ومن هنا تكون الدراسة ذات جدوى. وينبغي في كل الأحوال أن تستنبط من خلال النصوص الدينية الموثقة والتي لايرقى إليها الشك في صحتها ونسبتها إلى النبي الذي جاء بها، أقول تستنبط المناهج الخاصة بها، أما إذا فتشنا في تلك النصوص ولم تعثر على أية منهجية فيها، فربما يكون ذلك عاملاً مساعداً لنا في بحثنا عن الدين الباطل فنتجنبه، والدين الحق فنعتقده، أما هذه المناهج السالفة فإنها لاتعدو أن تكون تبريرات لعقائد وأديان لايؤمن بها أصحاب هذه المناهج، ثم لايريدون الإعلان عن بطلانها أمام الجماهير الساذجة المؤمنة فيختفون وراء هذه المناهج التي أضفوا عليها صفة العلمية وليست من العلم في شئ.




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



رقم الإيداع ٢٠٠٠/١٠٠١٩

الأنوار بالقاهرة